الشيخ محمد رضا الشبيبي شاعر الرِّقة والجمال

أ . د. ياسر علي عبد
جامعة القادسية / كلية الآداب

أ . د. عبد الله حبيب كاظم
جامعة القادسية / كلية التربية

تسليم البحث : ٢٠١٩/٢/٢٠ قبول النشر: ٢٠١٩/٧/٢١

ملخص بحث

هو شاعر يسير شعره باتساق مطرد في نحو التراث في لغته وصياغته ، مأخوذا بالارتباط بالتراث العربي القديم ، في نظرة تحاول دائما التجديد فيه وبعثه بعثا فيه من الروح العربي واصالته الشيء الكثير ، وفاء لعهد الانتماء بغية الارتقاء بالنص الشعري العربي الحديث وفي ذلك اتصال وتواصل مع المنظور الذي قاد الشعر العربي الى صورة جديدة تغادر ازمنة التأخر والجمود والشيخ الشبيبي شغوف باللغة واللهجات يدل على ذلك كثرة مداورته للأبحاث والمقالات في المجال اللهجي وبهذا كان شعره يتغذى من هذا النسغ لا سيما عندما من يذهب بشعره باتجاه معالجة قضايا تتصل بالجانب السياسي وتتصل بقضايا تتعلق بالسلطة والحكم واسقلال البلاد العربية لقد عبر عن ذلك بفصاحة ديباجته ورشاقة تعابيره

غير ان القيمة الاعلى في شعر الشبيبي تكمن في الرؤى الجمالية التي تأخذ حظا كبيرا ومساحة واسعة من شعر الشيخ الشبيبي ذلك انها تفصح بشكل واضح عن الجانب المرهف الذي يعبر عن الاحساس العاطفي الأرق من العواطف الانسانية التي تعد مزية واضحة في شعره وتعبر عن صدق التجربة الانسانية العاطفية في شعره .

فشعره يحفل بغنائية صافية وبلغة شعرية منتقاة مختارة تعبر عن صدق التجربة الشعرية لديه موضوعيا وفنيا فمشاعره كماهي لغته تنساب برقة وهدوء لتخلق ايقاعا عاطفيا هوحديث النفس المفعمة بالجمال .

وعلى وفق ما تقدم يأتي البحث ليرصد تلك المفارقة الحاصلة في شعر الشيخ بين ان يكون شعره تراثيا ملتصقا بالتراث في تعابيره وصوره ولغته وبين رقة معبرة تنشد الحب والعاطفة والجمال في وجهة اخرى . رأينا ان بها حاجة الى الاضاءة والايضاح لتقدم صورة اخرى عن الشيخ مغايرة لصورة الباحث في اللهجات والتاريخ والتراث اللغوي المرتبط بالمجامع العلمية وهي صورة لا تغادر الاولى بل مكملة لها .

إضاءة : في الشبيبي الشاعر

تذهب آراء الدارسين إلى أن الشيخ محمد رضا الشبيبي يمثل ركناً مهماً ووتراً حساساً في قيثارة الشعر العراقي في الثلث الأول من القرن العشرين ، حيث الرصافي والزهاوي والكاظمي وأحمد الصافي النجفي ، فوترهُ ينماز عن تفاوت عرفَ به الآخرون بين الجهورة والهمس والغلظة والرقة ، فهو يتجه نحو الرقة التي لا ينكرها ذوق ، ولا يبعدها فنٌ[١] .

إن الشبيبي الشاعر المحافظ ، إذ يرتبط شعره بالتراث العربي الشعري القديم إجمالاً ، مع تشابه واضح بالأسلوب الشعري عند الشاعر الشريف الرضي ، حيث تكمن الحساسية الشعرية عند الشيخ الشبيبي في أن شعرهُ ذو رؤية واضحة في التعبير عن الجانب الأرق من المشاعر والعواطف[٢].

إذ يبدو أن الشبيبي متمكن من المفهوم الشعري السليم ، إذ ((تأتي الديباجة في طليعة هذا المفهوم ، فما أمكن أن تتوافر فيه طرقه ، حتى لو كان سياسة أو اجتماعاً أو فلسفة عندها يمكن أن تكون هذه الأغراض شعراً ؛ وما لا يمكن أن تتوافر فيه نبذة وتجنبه عن قصد حتى عُدَ من مفاخر العصر الحديث))[٣] .

إن الثقافة التي أمتلكها الشبيبي عبر بيئة النجف ثم التحول إلى بغداد أعانتهُ على تكوين مفهومٌ شعري ذو نظرة نقدية وذوق سليم وموهبة أكيدة وثقافة جديدة مع ((ألفة وحفظ لروائع النثر العربي وفي مقدمتها القرآن الكريم ثم نهج البلاغة ، وإدامة نظر وحفظ لبدائع الشعر العربي وعلى رأسها آثار كبار شعراء العصور العباسية أبو نؤاس ، أبو فراس ، المتنبي ، ولا تسل عن الشريف ومهيار، أما البحتري فكان لفنه مكانٌ خاص من نفسه لأن المسألة مسألة ديباجة ، والبحتري من أكابر شعراء الديباجة وأنّه المثل عليها أن عز فهمها وصعب تحديدها))[٤] .

وعلى وفق المفهوم المتقدم ، وعبر رؤية الشعر ورؤياه ، راح الشيخ الشبيبي ، يعبر عن رسالة الشعر ، على وفق أنساق واضحة تتصل مرَّة بالتراث فتغترف منهُ ، وتنزع نحو الدراسة ، فتحاول أن تعبر عنها ، كل هذا تعبيراً عن هم وطني ونفسي وروحي ((فرسالة الشعر في ديوانهِ ذات أبعاد إنسانية ومكانة الحرف في حياتهِ تلتزم الدفاع عن الحق وتبشر بالخير في كل زمان ومكان ، والكلمة الفاضلة هي تلك الكلمة التي تستخرج العضة البالغة من سنن الاجتماع وعبر التاريخ والتي تسمو عن الذاتية الضيقة والفردية التي قد تكون وليدة الأنانية في بعض الأحيان إلى عالم رحب واسع تُمثل فيه الفضائل ومكارم الأخلاق الصدارة ، فشرف الكلمة وأنسانيتها يولدان من قدسية الأخلاق والدعوة الفاضلة التي تسعى الى تحرير الإنسان من العبودية والظلم لتشعرهُ بإنسانيته ومكانه اللائق بهِ في عالم النور))[٥] .

ولهذا ينزع الشبيبي في شعره بإتجاهين ، لا يحيد عنهما نزعة تذهب مذهباً روحياً عرفانياً معبرةٌ عن الحب والحكمة[٦] .

تتمثل فيها العواطف الصافية التي تبتعد عن الرؤية التي تحتفل بالجسد وتمثلاته ، والنزعة الثانية تذهب بإتجاه ((الفكرة القومية الوطنية ، فالشبيبي يحمل بين جوانحه قوميته الضائعة وأمته المشتتة الفقيرة ، وهو مجاهد في سبيل احيائها))[٧] .

ونحن في وقفتنا هذه عند الشيخ محمد رضا الشبيبي ، إنما نذهب بإتجاه مقارب للنزعة الأولى، نكشف فيه بتواضع عن جانب مهم في شعرهِ ، لم تتجه نحوه الأقلام بما يستحق هو ذلك النفس الشعري الذي ينشد الرقة والجمال ممزوجاً بروح رومانسية فيها من الحكمة والتصوف الشيء الكثير .

أولاً – رؤية وجدانية روحية :

ذهب الشعراء في حديثهم عن عواطفهم مذاهب شتى ، منذ قيل الشعر العربي ، فتغزلوا في رؤية موضوعية وفنية ، وساروا على ذلك زمناً طويلاً ، فكان حديثهم رؤية بإتجاه التغزل والتشبيه والنسيب ، ثم كان الغزل معبراً عن عواطفهم في مرحلة تالية مؤسساً للغزل غرضاً قائماً بذاتهِ في العصر الاموي ، فكان عفيفاً في اتجاه وصريحاً في آخر ، مع احتفاظ بما هو تقليدي مقدمة للقصائد .

ومع المسيرة الشعرية الوجدانية المعبرة عن حديث النفس ، إن خرج الشعراء بتعبير جديد عن عواطفهم هو حديث تام فيه نزوع الرؤية الشعرية لحديث خالص في النفس وما يعتريها من تعبير فيه من الشغف النفسي والروحي الشيء الكثير ، ويكاد يخلو من رؤية مادية تحتفل بالجسد وتعبيراته ، ويبدو أن الشيخ الشبيبي من هذا النوع من الشعراء ، فهو يقول في قصيدته ((أُغنية الروح))[٨] :

شَغَلَ السميرُ جوارحي، وشَغَلْتُمُ

روُحي، فكُنتُمْ دُونَهُ سُمَّارَها

ما شَأْنُ جثماني؟ وما أَوْطارُه؟

الروَّحُ بالِغَةٌ بَكُمْ أَوْطارَها

أنَّى تَهشّ الى حَدِيثِ مُحَدِّثٍ

روحٌ تكاشِفُ مِثْلكُمُ أَسْرَارَها

نِلْتُمْ حَقيقَتَها الّتي خِلَصَتْ لَكمُ

طَوْعاً، ونالَ سِوَاكُمُ آثارَها

ما آثَرتْكُمْ بالوَلوعِ ، وإنما

جَهِلَ الورَى وعَرَفتُمُ مِقْدارَها

عَيَّ اللِّسانُ لأنّ روُحك أوْقَعَت

أَلحانَها، وتَناشَدَتْ أَشْعَارَها

العودُ، والوَتَرُ الفَصيحُ لأِنفسٍ

جَسَّ الهَوَى بمروره أوْتارهَا

خانَتْكَ في حجْبِ الغَرامِ ضمائِرٌ

كان الغَرامُ – ولا يزالُ – شِعارَها

النص الشبيبي المتقدم ينشد الرقّة الروحية ، ويعبر عن جمال حسي كامن في أعماق النفس المحبَّة ، من دون أنَّ يقع في الماديةِ التي تحول المشاعر العاطفية الصادقة إلى رؤية يستهلكها حديث الجسد ، إنَّها نظرة سامية تعبر خير تعبير عن جانب إنساني رفيع ، وليسَ ذلك عجباً على الشيخ الشبيبي ، إذ أَن منظورهِ هذا يرتكز على ((روح شاعرة تغازلها الميول والعواطف ولكنها جبارة مؤمنة بالحكمة موقنة بالمثل الأعلى ، هي تساير العاطفة وتسمها ، فلا تخضع خضوعاً أعمى فتشد وتهبط لسفاسف الحياة ورذائلها .. نعم هي تسمو بأحلامها وتثور ولكنها كالموج العميق لا كالزبد ...))[٩] .

إن في هذا نظرة رومانسية تولي المرأة منزلة تُعلي من قدرها إلى مكان هي تستحقهُ ، وبذلك هي تفارق كثيراً مما ورد في عصور سابقة على عصر الشبيبي إلا ما جاء عند الشعراء العذريين(١٠).

لقد وقف الشيخ محمد رضا الشبيبي في موقف فيه الكثير من المرأة عندما تغنى بالحب ، مطلقاً لمشاعرهِ العنان في تعبير رقيق يتسم جمالياً بالروح العالية في عاطفتها ، وكأنَّهُ يجيب عن سؤال قديم شغل الناس ، هل يصلح شعر الحب والحديث في المرأة وإبداء المشاعر نحوها في عصر تأطرهُ ((تجارب مريرة ومعارك وكفاح وثورة على الرواسب القديمة البالية ، فقد ترسب في أذهان بعض الناس من خلال الجدل الكثير حول الالتزام والواقعية أن موضوع الحب ، ذلك الموضوع الشعري الذي لم يخلُ شعر عصر من الحديث فيه ، لم يعد موضوعاً مناسباً في عصر كله عمل وعرق وكفاح))(١١) .

إذ يقول الشبيبي(١٢) :

وَجَدْتُ المَوْت هَيْنَاً غيْرَ صَعْبٍ

لأنَّ العَيْشَ صَعْبٌ غَيْرُ هَيْنِ

لعلَّ أَمانياً رانَتْ حَياتي

لها ، تأتي فتجْلُو بَعْضُ دَيْني

أمانٍ إن ظَفِرتُ بينَّ أَحْيا

كما أَهْوَى ، وإلاّ حان حَيْنِ

هي الأحلامُ ماليةُ فؤادي

وأحسَبُهنَّ مِلءَ الخافِقَينِ

ولكن الشيخ الشبيبي يتجاوز هذا المعترك الحياتي إلى رؤية تتسم بمشاعر ملؤها الرقة والتفاؤل بحياة وغدٍ أفضل ، حيث الحب ، تلك العاطفة السامية عند بني البشرية جمعاء ، إذ يقول(١٣) :

لقد أشْرَقَتْ جُملُ الكائِناتِ

لعَيْنيَ غرْقى بنُورِ القمَرْ

وأسْهَرتَنا الشهبُ الحاكياتُ

عُيوناً يُشارِكْنَنا في السَّهَرْ

وَنَفْذّتَ في القَلْب حُكْمَ الهوى

ومَن يَسْتَهِنُ بُحكمِ القَدَرْ

.....

ولو لم تَكُنْ رُوحُ هذا الوُجودِ

جمالا مَلِتُ جَمالَ الصَّوَرْ

ويؤكد هذا المنظور الإنساني الشبيبي في قولهِ(١٤) :

الشَّعرُ شيءٌ ناطِقٌ في ذاتِهِ

أو قُوَّةَ في نَفْسِها تَتكلَّمُ

صِفَةٌ يَقومُ بها الفَصيحُ وَيَسْتَوي

فيها إلى صَفِّ الفَصيحِ الأَعْجَمُ

ما حُبَّ أَهْلِ الحُبِّ إلاَّ أَدْمُعٌ

حُمْرٌ تَسيلُ على شِفاهٍ تَبْسِمُ

صَدْرٌ مِنْ الأَحْقاد– وهيَ قَواتِلٌ –

خالٍ ، وقَلْبٌ بالعواطِفِ مُفْعَمُ

قَوْمٌ إذا نَسَبَ المَحَبةَ نَاسِبُ

فَلَهُمْ ، وأن طَلَبَ الحَنَانَ فمِنْهُمُ

إن الجوانب الإنسانية التي تخلصُ الإنسان من ضنك ما يحيطهُ من آلام وافتقاد للأحلام ، إذ به حاجةُ إلى روح النقاء والحب والتسامح تطلُّ ((على آفاق أرحب فيها الجمال والعواطف السامية في إطار قصائد غزلية ، تتمثل الحبَّ الجميل ... ، فالغزل هو السبيل الروحي إلى فهم جوهر النفس الإنسانية وما فيها من حب ، يمثل إرتعاشة قلب وعبير ابتسام وانكفاءة دمع وفيض ماء ... ، إنَّهُ نور يلقيه المحب على الحياة فتغدو ثرة بالمسرات ويبدد الظلمات ويهتك اسرار الغباء البشرية ويمزق أدران التخلف))[١٥] .

وبذلك فرقة شعر الشبيبي الغزلي الحبي ، تكمن في تعبيرهِ خير تعبير عن ذوق عام يتملك علاقة الإنسان ممثلاً بالرجل والمرأة ، عبر الحياة العاطفية التي تتجاوز الماديات لتكون شعاعاً مضيئاً عبر الروحيات ، فهي تعبير عن أسمى العواطف الإنسانية ذلك هو الحب الروحي .

ثانياً – رؤيةٌ في الحكمة :

حاول الشيخ محمد رضا الشبيبي أن يقدَّم رؤية حكميَّة في شعرهِ ، تعبر عن تجربة إنسانية خلاقة ، وقد جاءت تجربتهُ هذه معبرة عن أسمى العواطف الإنسانية ، فهي مزيج متجانس بين

العاطفة والحكمة المقيّدة لتلك العاطفة ، حتى تبقى في إطارها الصحيح ذلك الإطار الضام لما هو جميل ورقيق ، لا يغادر نقاء الحياة وصفاءها إذ قال(١٦) :

أَحْبَبْتُ حَتَّى جَفا أَهْلي ومَا صَبَروَا

كما صَبَرْتُ وحَتى غَشَّ نُصَّاحي

لَمْ تَهْوَ طائِفَةٌ أَبْدَانُها اتصلَتْ

إنَّ الهوى صلَةٌ مَا بَيْنَ أَرْوَاحِ

قَدْ أَفْصَحَتْ عَنْ هَوَانا كُلَّ ساجِعَةٍ

حتى الحَمَامَةُ باتَتْ ذَاتَ إِفْصاحِ

كَفَتْكَ عَنْ وَصْفِ حَالي نظرَةٌ عَرَضَتْ

كَمْ لَحْظَةٍ أَجْزَأَتْ عَنْ شَرْحِ شُرّاحِ

إنَّ الشبيبي هنا يقدَّمُ تجربة شعرية ، فيها الكثير من التعبير عن تجربة حياتية مؤطرة بتجربة عاطفية تنشد التحقق عبر التواصل الروحي ((إن الهوى صلة مَا بين أَرواح)) ، وهذهِ التجربة لربَّما تماثل تجارب أخرى مرَّ بها الإنسانُ ، والإنسانُ الشاعر حتى أنَّ الطبيعة الحيَّة ممثلة بـــ ((الحمام)) حاكت هذهِ التجربة ومع هذا وفي إطار حكمي، فإن تجربة الشبيبي لا تماثلها تجارب الآخرين ، فهي عصية على الشرح والتأويل وهي تجربة مقدسة لا يرقى إليها الشَّكُ ، فهي المصاف الأعلى من الرؤية العاطفية المتسمة بالحكمة ، عبر تجربة تعادل الوجود وساكنيه ، إذ يقول(١٧) :

إذا الشك اعتراك بكلِّ شيء

ورأيكِ في الوجود وساكنيهِ

ثقي بَهوّى تبوَّأ مِن فؤادي

مكاناً لا يَليق الشَّكُّ فيهِ

أنَّها رؤية حكمية ، تحلَّ الحبَّ والمشاعر النقية في منزلة فيها من التقديس ، ما يجعلها تحل في منزلة واحدة مع منزلة ما يعتقد به الإنسان في إيمانهِ ، قاطعاً الشك باليقين ، وهي بهذا تقدم هذه التجربة لتحلَّ الحبَّ في منزلة لائقة به في حياتنا ، وتجعل منهُ سلوكاً يومياً فيه شفاء للإنسان من حزنه وتعاسته[١٨] .

وللشيخ الشبيبي رأي في تكريم العلماء والادباء ، ينم عن تجربة حكمية رائعة ، فيها دليل عملي على أنَّ هذا التكريم يجب أن يكون في حياة ذلك العالم أو ذلك الاديب وليس بعد رحيله ، ففي هذا تشجيع ، وحضٌّ واضح للعلماء والادباء على الإبداع والأخذ بطوابع التقدم البشري الحضاري ، إذ قال[١٩] :

يَصحُّ مِنَا أنْ نُكرِّمَ نابغاً

قد صار في الماضي السَّحيق رُفاتاً ؟

هَيْهَات ، ليسَ يَصبحُّ ذا مِن مَعْشَر

سيَّانِ عاشَ أَدِيُبهمْ أوْ ماتا

وله في المعنى نفسه[٢٠] :

قد أقامُوا، أو حاوَلوا أن يقيمُوا

حَفْلةً يَخْطِبُون فيها مَلِيَّا

وبذلك فإن دعوة الشبيبي تأتي من وحي تجربة تقدم خلاصة حكمية لحياة العلماء والادباء التي غالباً ما يسودها الفُقر والعوز ولكن لا أحد ينتبه أو يتنبهُ إليهم إلاّ بَعد فقدانهم، بعد أن يغيبهم الموت ، فترتفع الأصوات مطالبة في إعلاء شأنهم وإقامة الحفلات والمهرجانات تخليداً لذكراهم ،

وذلك حقُ وواجب أن تستذكر الشعوب علماءها وأدباءها ، ولكن الأوجب والأهم هو أن يلتفت إليهم في حياتهم ، وإن يعلو شأنهم وهم أحياء وليس أموات ، فالأديب أبداً خالد بأدبه ، غير أن تقلب أحوال العيش يراد لها أن ترتقي إلى وعي ذلك الأديب ونصيبه من الحياة وكأنَّه يشير إلى هذا في شعرهِ الحكمي هذا[٢١] :

خَلتِ العُصُورُ ومَا خَلَت مِن نَاقِلٍ

أو قائِلٍ هذا الحكيمُ الخالدُ

أو مُورِدٍ للْقَوْلِ فيَمنْ حَيَّرتْ

منهُ الفُحُولُ مَصَادِرٌ وموارِدُ

ما الَعْبَقريَّ الفذَّ إلاّ فِكْرَةٌ

إنْ مَاتَ عَاشَ بَها الرَّمِيمُ الهامدُ

وإذا تأمَّلْتُ الخلودَ أصَبتْهُ

في الصَّالحِاتِ وحَيْثُ يَفْنى الفاسِدُ

لابُدَّ مِن نَقدِ الزَّمانِ فإنّما

نحن المعادن والزَّمَانُ الناقِد

حَسَدوا النَّبوغَ وناوؤهُ فلمْ يمُتْ

بل مات بالداءِ الدَّفِينِ الحاسدُ

فهذهِ الأبيات تقدم رؤية حكمية فيها خلاصة المنظور الحياتي بإتجاه المبدعين ، غير أنَّ الزمَّان هو الحكم الفصل فيها ، إذ كلما حورب المبدعون أرتفع بهم الزمان سمواً وعلواً .

ثالثاً – رؤية في الطبيعة والوصف :

أحبَّ الإنسان الطبيعة فأقترب منها ، وأقترن بها ، خائفاً وراغباً ، فكانت ملاذهُ وعيشهُ وسرَّ تفاؤله ومفتاح تفكيره وتدبرهِ ، إليها التجأ ورمى بنفسهِ بين أحضانها ، ولربَّما أنَّ الادباء والشعراء منهم خاصة ، كانوا خير من عبر عن حركية مشاعر الإنسان بإتجاه الطبيعة بكل ما تحويه ، إذ فيها مادة ثرة يستقي منها أدواتهُ من تعابير وأخيلة وصور[٢٢] .

ولا يفارق الشيخ الشبيبي هذه النظرة الشعرية نحو الطبيعة فتغنى بها ، بإحن الألفاظ وأجملها مقدماً أجمل اللوحات الشعرية التي تحرك المشاعر وتهز الوجدان ، فيقول في الربيع[٢٣] :

خلَعَتْ أَيْدِي الرَّبيعِ النَّضر

فوقَ متنِ الأرضِ أَبْهى الحِبزِ

وجلت تيجانَها زهْرُ الرُّبَا

والنَّدى كلّلتها بالدّرَرِ

وأنتشت أغصانُها مِن أَكْؤُسٍ

طاف فيهنَّ نسيمُ السَّحَرِ

.....

وبساط الأرضِ بالنَّور حلا

فآزْدَهتْ منهُ بَوشْ عبقري

فكَأنَّ النرَّجِسَ الغض بها

عَيْنَ صبٍّ بُليتْ بالسَّهرَ

والشيخ الشبيبي يقترب من الرومانسيين في نظرتهِ إلى الطبيعة ، فهو لا يقف واصفاً لها فقط ، بل على طريقتهم[٢٤] ، يتغنى بها ، ويخلعُ عليها من مشاعره وما يعتمل في نفسهِ الشيء الكثير ، حتَّى أنَّهُ يتخذ منها طريقاً لنقد الواقع المؤلم الذي يحياه الناس في زمانهِ ، وكأَنَّهُ يسجل بذلك رؤية شعرية تمتزج برؤية فكرية تنشد الإصلاح ، من ذلك قوله[٢٥] :

حَسَدْتُ الزَّهُورَ لأن الزَّهورَ

كإِخوان جامِعَةٍ مُثَّلِ

ويا للمودَّة بين الغُصون

إذا ما جَرَى نَفَسُ الشَّمْأَلِ

فهذا يَقولُ لذاكَ : إعتنقْ

تِلك تُشيرُ لذي : قَبّلي

فما لِبني نَوْعِنا الأكرمين

قد افترقوا كالمَهَا الجُفَّلِ

يُبيدُ القَوِيَّ حياةَ الضَّعيفِ

ويُؤدي المُسَلَّحُ بالأعْزَلِ

فالشبيبي يعقد مقارنة بين صفو الطبيعة ، حيث يرى فيها صورة جميلة لعلاقة مثالية يجب أن تسود بين أبناء بني البشر غير أنَّ مشاعرهُ ترتد إلى واقع مضطرب يتجلى فيه صراع القوي والضعيف عند الإنسان .

في ضمن هذا اهتمام الشيخ الشبيبي في شعرهِ جاء وصفهُ للمدن وللحوادث المشهورة التي وقعت في زمانهِ ، وقد كان هذا الوصف على درجة بالغة من الدقة الشعرية ، فيه من الحماسة الشعرية ما يجعلهُ في طليعة الشعراء الذين يمتلكون حاسة شعرية تستطيع التصوير عبر المشاهدة ، أو عبر الوصف التخيلي لحكاية إعادتهِ المادة المروية ، فما جاء عبر المشاهدة وصفه للفيضان الذي أغرق شطراً من مدينة بغداد سنة ١٩٢٧ عندما فاض نهر دجلة(٢٦) :

كفى يا مَسْقَط الوادي أنْدفاقَا

ألا تَرْعى الجزيرة والعِراقَ ؟

طغى الوادي كَشَعْبٍ أَخرَجوه

فما أحتَملَ الهَوانَ ، وَلاَ أَطاقا

ولمّا قَيَّدوُه ليستفيدوا

أَبى من قَيدِه إلاّ انطلاقا

برَبَك أيَّها الوادي أَفِدْنا

وَعلمٍّ كيفَ نُفْتَكُّ الوَثاقا

أَلسْنّا أُمَّةً ضَجرَت وَقلت

من الباغين رقَّا لا آنعتاقا

والشبيبي لا يدع هذه المناسبة تمرمن دون أن يفيد منها في هدفهِ الأصل وهو الدعوة إلى الإصلاح والتحرر ، مقدماً صورة شعرية تعتمد رؤيتين رؤية ماء الفيضان الذي انتصر على قيد الإنسان ودمر السدود ((فما احتمل الهوان وأطاقاً)) وكأنَّهُ إنسان كريم لا يقبل الضيم ولا يصبر عليهِ

، ولذلك علينا أن نتعلم من هذهِ التجربة التي قدمتها إلينا الطبيعة فنتخلص من الباغين والفاسدين ((وعلم كيف نفتك الوثاقا)) .

ويحتفل الشبيبي بالمدنية مثلما احتفل الشعراء بها إذ أن الشعراء رصدوا المدينة في رؤية تعدُ العصر الحديث عصر مدينة ، إذ أخذ موضوعها حيزاً كبيراً في كل تشعباته ، فهو يكون دوراً رئيساً في كل المجالات ويتضح ذلك في الشعر خاصةً[٢٧] .

وهذا الأمر يتضح بصورة جلية منذ منتصف القرن التاسع عشر في الشعر الأجنبي لاسيما عند بودلير وويت مان وت إس اليوت ، وفير هاردن الذين يتقدمون شعراء المدينة[٢٨].

ويبدو أن الشيخ الشبيبي كان سابقاً على شعراء الحداثة العرب في رصدهِ للمدينة لاسيما بغداد وصيداء وغيرهما ، وأن كان هذا الرصد يعتمد الوصف والإحساس المشاعري من دون النفاذ إلى تفاعلات المدينة برؤية واضحة ، وعلى هذا يأتي حديثهُ الوصفي الجميل في مدينة صيداء اللبنانية في سنة ١٩١٩ ، إذ يصف ربيع صيداء وشتاءها وسقوط الثلج على أشجار الاثمار الحمضية فيها ، ويذكر أصدقاء له فيها ، فيقول[٢٩] :

عَروُسٌ مِنَ البُلدَانِ ليسَ لَها مَهْرُ

وَمِصرٌ سَبَتني لا الصَّعيدُ ولا مِصرُ

وما هي – لمَّا قَلَّدتني نعتها

وَشاطِئُها – إلاَّ القِلادةُ وَالنَّحْرُ

.....

وما رَاق من صَيْداءَ إلاَّ بشاشةٌ

وإلاّ آبتسامٌ مِثلَ ما ابتَسَمَ الثَّغرُ

وما أَنتِ يا صَيْداءُ إلا مُلاءَةٌ

مِن الوَرِدِ مَحبُوبٌ لرائِدك النَشْرُ

جبالُكِ تحنانّا عليكِ عواطِفٌ

وُمَحْدَودباتٌ مِثْلُ ما احدَوْدبَ الظَّهرُ

.....

أفي شكلِ مَبيَضٍّ من الثَّلْج انزلت

عليكِ من الله النَّزاهَةُ والطُّهْرُ

مَواسِمُ صَيْداءٍ من الثلج وُضَّحٌ

وأيامُ صيداءَ محجَّلةٌ غرُّ

وفي أرض بَغْداد هواءٌ هو المُنى

وعَيْشٌ هو السلوى وماءٌ هو الخمْرُ

أأنسى زمَان الكرْخ والكرخُ مُعرِسٌ

وتذهب عن ذِكرْي الرُّصافةَ والجِسْرُ ؟

ومع رقة صيداء وجمالها في طبيعتها الساحرة على مدار فصول السنة ، وبالرغم من الترحاب من اهلها الطيبين والأصدقاء المقربين من الشيخ الشبيبي ، فإنّه أبداً لا ينسى بغداد ورصافتها والجسر ونسيمها الطيب العذب ، فإليها أبداً هو مشتاقٌ وفيٌ .

والشبيبي في وصفهِ كان انسانياً إلى أبعد الحدود ، يشعر ويتأثر لبني جنسه إلى بعد المسافات واختلاف الاشكال والأقوام ، فها هو يأتي بقصيدة وصفية بديعة ، نسجها الخيال على

وصف معتمد على الحكاية الإخبارية المنقولة لحادثة غرق السفينة المشهورة ((التيتانيك)) في سنة ١٩١٢م ، فالهم الإنساني لديه اصطنع خيالاً شعرياً بعيد المرمى فكانت هذه القصيدة ومنها[٣٠] :

بأبيكِ أقسِمُ يابنَةَ البَحْرِ الذي

وَاراكِ ، كيف رأيتِ فَتْك أَبيكِ ؟

ما حَطّ ثَقْلَكِ في حَشَاهُ نكاية

لكنّهُ فَرْطُ احتفالٍ فيكِ

أبكيْتِ أهْلكِ لا الجزائر وَحْدَها

فالعالمُون جميعُهُمْ أهْلوكِ

شَكَّوا يُحيلون انطماسكِ آية

هي تلك مَنشأُ حَيْرَةٍ وَشُكوكِ

عَبرَت تشقُ اليَمَّ غيْرَ مطيعَةِ

لإشارةِ التَسْكينِ وَالتَّحرْيكِ

والبحْرَ ساج ذو سُكونِ رائعٍ

والشَّمسُ تحت الأُفق ذاتُ دُلوكِ

ومنها أيضاً[٣١] :

زعُموا ضَلّت ، ولو أَرَدْتِ هِدايَةَ

كان (المُحيطُ) بنَفْسِه هاديكِ

ولو أن مُعجزةَ الجمال تَمثَّلت

للنَّاس قبلْكِ صُورَة ظنّوك

ما كان أَقْصَرَ منكِ عُمْراً لم يَطُلْ

لكن أطالَ شجى الأُلى عمروك

.....

ولَرُبّ مُنْتظرِيَنِ قُبْلةٍ

أَدْنَتْ ضَحوْكَة مبسمٍ لضحوكِ

يتشاكيانِ وإِنَّما هي أَلسُنٌ

لولا البلاءُ لأَفصحت تشكوكِ

أفِراقُ أَخْتِكَ هَيِّنٌ ؟ فيجيبها

كَلاَّ ، يهونُ إِذن فراقُ أخيكِ

وتَقولُ : تسلوني ؟ فينِطقُ دَمْعُه

لو كان لي قلبٌ به أسلوكِ

.....

يا وجنة احترقي فقد فتك الثرى

والماء بالماءِ الذي يُرْويكِ

إن البعد الإنساني عند الشيخ الشبيبي جعل منهُ متمثلاً لهذا الموضوع الإنساني برقة متناهية في تصوير المشاعر الإنسانية ، وكأنَّهُ قد عايش الحدث أو كان شاهد عيانٍ عليه ، وهو بهذا يقترب من رؤية قصصية سردية مبكرة في شعرنا العربي الحديث .

نخلص مما تقدم أن الشاعر الشيخ محمد رضا الشبيبي ، كان يمتلك حساً شعرياً فيه من الثراء والتنوع ، مما يجعلهُ في مصاف الرعيل الأول من شعراء العربية في العصر الحديث ، ولئن كان الموضوع السياسي قد أخذ الجانب الأكبر من شعر الشيخ الشبيبي ، فإنَّهُ لم يهمل الجوانب الأخرى ، إذ جاء شعرهُ معبراً بوحي جمالي رقيق عن الابعاد الإنسانية التي تنمي الذائقة الروحية وتسمو بالمشاعر إلى رؤية فيها نقاء وصفو عاليين فكان حديثهُ في الحب والغزل وفي الطبيعة والوصف والحكمة وقد أراد بذلك أن يحقق إنسانية الإنسان فالحبُ لديهِ عذري عفٌ ينشد المشاعر السامية بعيداً عن الماديات الجسدية، والحكمة تنشد التجربة الإنسانية الخلاقة التي تنفع الإنسان في أخذ طريقه نحو الخير والطبيعة حيَّة ماثلة تتكلم بآمال الإنسان وتعبر عن آلامهِ ، وجاء الوصف إنسانياً معبراً عن الروحية الإنسانية ذات الإتساع الشمولي عند الشيخ الشبيبي مما لا تحدهُ حدود.

الهوامش وفي ضمنها مصادر البحث :

(١) ينظر : الشيخ محمد رضا الشبيبي ، ودراستهُ اللهجية ، د. حامد الظالمي ، دار الفيحاء ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٣ : ١٢ .

(٢) ينظر : الإتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث ، د. سلمى الخضراء الجيوسي ، ترجمة : د. عبد الواحد لؤلوة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١ : ٢٣٨ .

(٣) الشيخ محمد رضا الشبيبي – حياته وشعره ، د. علي جواد الطاهر ، مجلة آفاق نجفية ، ع١ ، ٢٠٠٦م : ٣٣٣ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٣١ .

(٥) شاعرية الشيخ محمد رضا الشبيبي ، أ . د. عناد غزوان ، مجلة آفاق نجفية ، ع١ ، ٢٠٠٦م : ٣٣٩ .

(٦) ينظر : الشبيبي الشاعر ، الأستاذ مرتضى فرج الله ، مجلة آفاق نجفية ، ع١ ، ٢٠٠٦م : ٣٥٢ .

(٧) ديوان الشبيبي : ٣٥٣ .

(٨) م . ن : ١٣٦ .

(٩) الشبيبي الشاعر ، آفاق نجفية ، ع ١ ، ٢٠٠٦ : ٣٤٩ .

(١٠) بنية القصيدة العربية المعاصرة المتكاملة ، د. خليل موسى ، منشورات اتحاد الكتاب العربي ، دمشق ، ٢٠٠٣ : ٥٧ – ٥٨ .

(١١) الشعر في إطار العصر الثوري ، د. عز الدين إسماعيل ، دار القلم ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٣ : ٢٤ .

(١٢) ديوان الشبيبي : ١٥٢ .

(١٣) م . ن : ١٥٣ .

(١٤) م . ن : ١٦١ .

(١٥) الحب بين رؤيتين ، د. سمير الخليل ، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع ، بغداد ، ط١ ، ٢٠١٤ : ٨ – ٩ .

(١٦) ديوان الشبيبي : ١٤٠ .

(١٧) م . ن : ١٤٤ .

(١٨) ينظر : أهم مظاهر الرومانطيقية في الادب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها ، فؤاد الفرفوري ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس – ليبيا ، ١٩٨٠ : ١٥٦ .

(١٩) ديوان الشبيبي : ١٩٨ .

(٢٠)ديوان الشبيبي : ١٩٨ .

(٢١) م . ن : ١٩٤ .

(٢٢) ينظر : مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث ، د. إبراهيم خليل ، دار المسيرة ، عمَّان ، الأردن ، ط٥ ، ٢٠١٢م : ١٣٥ .

(٢٣) ديوان الشبيبي : ١٧٩ .

(٢٤) الرومانتيكية ، د. محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط٣ ، ٢٠٠٧م : ١٥٤ .

(٢٥) ديوان الشبيبي : ١٦٥ .

(٢٦) م . ن : ١٦٥ .

(٢٧) تحولات المدنية في الشعر العراقي الحديث ، د. عبد الله حبيب التميمي ، دار الرائي ، دمشق ، ط١ ، ٢٠١٠ : ٢٩

(٢٨) الحداثة ، ج٢ ، الفصل الخامس ، تحرير : مالكوم براد بري وجيمس ماكفارلن ، ترجمة : مؤيد حسن فوزي ، دار المأمون ، بغداد ، ١٩٩٠ : ٤٥ – ٦٠ .

(٢٩) ديوان الشبيبي : ١٦٦ – ١٦٨ .

(٣٠) م . ن : ١٦٩ .

(٣١) م . ن : ١٧٠ – ١٧١ .